

السنة الرابعة

المعنا

المجلد ٦ و٧ و٨

مجلة علمية تهذيبية تاريخية صحية

الاسكندرية - الجزء السادس - سنة ١٩٠٣ م - سنة ١٣٢١ هـ



✱ رنان في آخر عمره ✱

مشاهير المنقزمين و المناخرين

الفيلسوف رنان

« الاحتفال في الشهر السابق بنصب تمثاله في فرنسا »

مثال الفيلسوف الكامل

لم نكد نفرغ في الجزء السابق من تفصيل الاحتفال بنصب تمثال الفيلسوف جول سمون حتى قامت الضجة في فرنسا لنصب تمثال الفيلسوف ارنست رنان في بلدة « تريجييه » مسقط رأسه (١) وقد ذكرت الشركات البرقية هذا الحادث في حينه ليس فقط لسمو منزلة الرجل بل لان ناصبي التمثال جعلوا له معنىً خصوصياً خيف ان يحدث بسببه اضطراب في بريطانيا . واليك البيان

من المشهور ان مقاطعات بريطانيا الفرنسية شديدة التمسك بالتقاليد الدينية القديمة . وقد ولد رنان فيها في بلدة « تريجييه » التي تقدم ذكرها . ولا يزال منزله فيها كعبة يحج إليها الاوروبيون والاميركيون ليشاهدوا الجدران التي تحرك ضمناً روح افلاطون المتأخرين وكبير حكماء الفلسفة الادبية والدينية في العالم . فبسبب ما قام في فرنسا بين الحزب الجمهوري والحزب الاكليريكي في العامين الماضيين وانتصار البريطانيين للحزب الاكليريكي انتصاراً شديداً أكد بفضي الى ثورة اهلية في بريطانيا حين اقفال مدارسها الاكليريكية الغير المأذونة - خطر لانباء بريطانيا الجمهوريين ان ينهبوا تمثالاً لرنان في مسقط رأسه ليجودوا بين البريطانيين حركة تدفعهم عن المبادئ الاكليريكية الى المبادئ الجمهورية . وهؤلاء الجمهوريون البريطانيون يدعون « البريطانيين الزرق » تمييزاً لهم عن « البريطانيين البيض » وهم المخالفون لهم في السياسة . فألف « البريطانيون الزرق » لجنة لجمع المال وانشاء التمثال فنشرت اللجنة اعلاناً بغرضها بين جميع مشاهير الارض فوردتها الاموال ورسائل

الاشتراك من كل الجهات : وقد كان المشتركون معها من كل الاحزاب العاقلة المتساهلة كاثوليك وانجيليين وامرياليين وفلاسفة . وفي جملتهم المؤرخ مسمن اعظم علماء الالمان اليوم والعالم جبرائيل مونود اعظم علماء البروتستانت في فرنسا والمسيو ريبو الكاثوليكي الذي امتاز في فرنسا بالعامين الاخيرين بالانصار للحزب الاكاديمي صوناً لمبدأ الحرية والجمهورية وهو من رؤساء الوزارات السابقين . والمسيو والدك روسو المشهور . وكثيرون من علماء الارض من كل البلاد . وكلهم كتبوا الى اللجنة كتباً خلاصتها ان الانسانية وفرنسا يحق لهما ان تفتخرا بظهور رجل فيها نزيه الاخلاق واسع العلم مترفعاً عن دنايا الارض مثل ارنست رنان . وقد جمعت اللجنة هذه الرسائل كلها في كتاب ضخمة دعت به « كتاب رنان الذهبي » لانه عبارة عن شهادة له من مئات من اكابر علماء الارض وعقلائهم بصفات علمية وفلسفية وادبية لم تنسب لغيره من عهد افلاطون . ولذلك دعوه « افلاطون المتأخرين »

✽ رنان والاحزاب ✽ ومن البديهي ان الرغبة في نصب تمثال رنان في بريطانيا اسخط الحزب الاكاديمي . فكشبت كاهن تريجييه الى شيخ البلدة يقول له انهم اذا جرتوا هذا العار والفضيحة على تريجييه فانه يمتنع عن الدخول الى الشارع الذي ينصب فيه التمثال حتى اذا حضرت الوفاة احد المسيحيين في ذلك الشارع لم يستطع الذهاب اليه لتزويده بالاسرار المقدسة . فعدلوا حينئذ عن نصب التمثال امام منزل رنان وقرروا نصبه في ساحة الكنيسة امام بابها الكبير . فازداد الخصاص والانقسام بين الحزبين في فرنسا كلها وصار اسم رنان عبارة عن راية يتحاربان تحتها

على اننا بعد مطالعة ما طالعناه من كتب رنان يظهر لنا انه لو كان حياً لما رضي باقامة تمثاله في تريجييه بهذه الطريقة وان كان يجب مسقط رأسه حياً بريطانياً كما كان يقول . ذلك لانه كان يحب الحرية والتساهل فوق كل شيء . واقامة تمثاله سيفي تريجييه بتلك الطريقة كانت عبارة عن تحرش بمعتقدات الغير واعتداء عليها . وهذا ما ذكرته الطائفة البروتستنتية والديبا الكاثوليكية . فانها قالتا ان رنان كان رسول التساهل وحرية الاعتقاد في العالم ومن كانت هذه صفته لا يرضى عن الاساءة الى معتقد غيره

ونقسم الاحزاب الفرنسية اليوم الى سبعة (١) الحزب الراديكالي (٢) الراديكالي الاشتراكي (٣) الاشتراكي (٤) الحزب الجمهوري المعتدل المحالف للراديكالي (٥) الحزب الجمهوري المعتدل المستقل ولكنه يميل نحو الحزب الملكي اكثر من الميل الى الحزب الراديكالي

الاشتراكي لخوفه من المبادئ الاشتراكية (٦) الحزب الملكي الاكثريكي (٧) حزب
الناسيوناليست - فالاربعة الاحزاب الاولى وهي الاكثرية الكبرى ألفت ما سموه "عصبة"
واقامت وزارة على مبادئها لادخال الاصلاحات التي ترى لزومها . فهذه الاحزاب الاربعة
هي التي كانت تضيح في اثناء الاستعداد للاحتفال برنان وتحارب خصوصها بالدفاع عنه .
فكانت الطان والديبا اللتان هما لسان حال الحزب الجمهوري المعتدل المستقل (الخامس)
تضحكان ونقولان لهم ان مبادئ رنان لا تنطبق على مبادئكم

✽ رنان والجمهورية ✽ ذلك ان رنان عاش ومات بين الاحزاب . فلم يكن
منسوبا لاحدها . يروى ان سقراط الحكيم سئل من اي وطن انت ؟ وربما رام سائله تعبيره
بذلك لانه كان يدعو الى وحدانية الله وهذه الدعوة مخالفة لتعدد الآلهة عند اليونانيين
وكان عندهم من يسيء الى الآلهة فقد اساء الى وطنه . فاجاب سقراط " وطني العالم " -
وكذلك لو سئل رنان في حياته : ما هو حزبك : لاجاب ولا شك : حزبي البشر كلهم
لانني اخ لهم جميعا لا لفريق منهم

وهذا هو السبب في انك ترى في افكار رنان شيئا كثيرا من التناقض . فانه يمشي
للملكي والجمهوري . والجاحد والمؤمن . والقديم والحديث . والتعصب والتساهل . ذلك
ان فكره واسع رحب يستطيع فهم كل ما في تلك المتناقضات من الجمال والحقائق . فيذكر
محاسنها ومساوئها معا باستقلال تام وانصاف كامل كانه واقف امام الدينونة الاخيرة . وهذا معنى
قولنا عنه في صدر الكلام انه مثال الفيلسوف الكامل

ولقد ندّد رنان في الجمهورية والديمقراطية بعد حرب السبعين لان الغلاة اتوا فيها كثيرا
من المنكرات التي اغضبتهم . وفضلاً عن ذلك فدوقه ارستوقراسي نحيف ولذلك كان يوده
لو تكون حكومة البشر ملقاة الى عصبة من العلماء والفلاسفة ويكون ملكها عالماً ايضاً وغاية في
الكمال . ولكنه لما رأى بالخبرة ان العلم يترقى مع الجمهورية اكثر مما يترقى مع الملكية لان
الجمهورية تطلق له الحرية والملكية قد تقيده بقيود حديدية صار يفضل الجمهورية .
وعلى ذلك فخرية العلم اي حرية الفكر والنشر مقياس الافضية عنده . ورأى به في ذلك
مبسوط في كتابه (المباحثات الفلسفية) الذي كتبه في آخر حياته . ففي احدى مباحثات
هذا الكتاب قصة كاليبان وبروسبيرو . وبروسبيرو هذا هو ملكه العاقل الكامل . واما
كاليبان فهو رجل فاسد مشوه الدماغ وهو كناية عن الشعب . فقام كاليبان واسقط بروسبيرو عن

ملكه وحل محله قبل ان ينضج رايه وتصلح حاله . قال رنان « انني احب بروسبيرو ولكنني لا احب الذين يريدون ارجاعه الى ملكه . فان كاليبان (مع حالته القاصرة) ينفعنا اكثر من بروسبيرو اذا عاد الينا على يد الجزويت والجنود الحبرية . ذلك لان عودته تكون ضغطاً علينا لا نهضة لنا . اذاً فلنبق كاليبان »

✽ الله والدين ورنان ✽ وانما قالت الطان والديبا للحزب الفرنسي المتطرفة ذلك القول لان رنان يرى في الله والدين ما لا تراه هي . ويحسن بنا هنا ان ننقل شيئاً من آرائه في هذه المواضيع الخطيرة لعل الذين تعلموا من الغرب سب رنان في الشرق تدعوم ذمتهم الى الاعتدال والانصاف ولو قليلاً

قالت جريدة الديبا الكاثوليكية ان رنان خدم الروح الديني في العالم خدمة ما بعدها خدمة . فانه هدم « روح فولتير » هدماً . تعني روح التهمك على الاديان والمذاهب واعتبارها اساطير قديمة . وانما هدم رنان تلك الروح بشيئين : الاول اعتماده في كتابته تاريخ الديانة المسيحية على الكتب المسيحية نفسها . والثاني تعليمه الناس احترام الامور الدينية واظهاره جمال العواطف الصادرة عنها . ولذلك قالت جريدة الطان ان الذي نشط الحركة الدينية في العالم وزادها اتساعاً هو رنان . فان كل فاري لا يتمالك ان يطير طرباً كلما قرأ ذلك الكلام اللين الحلو الممتلي روحاً دينياً وتتشبع نفسه منه . وهكذا نشأ متادّبو العصر على احترام العواطف الدينية ووضعها في اسمى منزلة في نفوسهم بعد ان كان لا هم لهم الا التهمك عليها واحتقارها . وبذلك حلت « الروح الرنانية » محل « الروح الفولتيرية »

واليك بعض الامثلة لذلك

قال رنان في خاتمة كتابه « اعمال الرسل » ان الانسان حيوان دين اي مفطور على الدين . وكلما ارتقت الانسانية ازداد شعوره الديني . وقد شرح ذلك هناك شرحاً وافياً . وهذا الرائي مخالف للماديين والوضعيين على خط مستقيم

وقال في منتخباته ما ملخصه « انه لما كان في غزير (لبنان) نزل ضيقاً على احدى الاسر الكبيرة هناك . فلما قامت الضوضاء في فرنسا بسببه دعا كبير تلك الاسرة نجلاً له وسأله قائلاً يا بني ما بالهم ينسبون الى المسيور رنان ما ينسبون . اخبرني عن اعتقاده . ولنبداً اولاً بالآب . هل يعتقد بالله . فاجاب الفنى : اما في هذا فانه وطيد الايمان . فاجاب ذلك الشيخ الكريم : هذا شيء كثير هذا شيء كثير » وقد اورد رنان هذه القصة لاثبات ايمانه

وحدث في الشهر الماضي احد كتّاب الديبا فقال : بعد دفن اخت رنان في جبيل (لبنان) كان رنان يستدعي الكهنة لاقامة القداسات عن نفسها . ولما قيل له في ذلك اجاب انني استنزل عليها بركة شيوخ صالحين كهؤلاء الشيوخ واحول بذلك دون اهانة قبرها بعد سفري اذا سمع هنا عني شيء يكرهونه

وقال في مقدمة كتابه « اوراق منشورة » ، « هل الحاجة الابدية التي في ضمائرنا الى ما وراء الطبيعة هي وهم وخيال ؟ كلا ثم كلا . فان من ينفي ذلك نفياً قطعياً مثله مثل من يثبت ذلك اثباتاً قطعياً . لانه اذا كان لم يثبت عقلياً ان للكون نفساً فايضاً لم يثبت انه ليس هنالك نفس له . فكل ما نعلمه اننا لا نعلم شيئاً . هذا كل ما تقدر ان نقوله عما وراء الطبيعة . فلا نكرن شيئاً ولا نثبتن شيئاً . بل فلنتمسك بالامل »

وقال في موضع آخر « ان نفسي ستسكن بعد وفاي في خرائب كنيسة القديس مخايل بشكل طائر البحر الايض . وسيدق هذا الطائر حائماً في الليل حول ابواب الكنيسة ونوافذها تائهاً عن المدخل شاكياً متألماً . وهكذا تبقى نفسي المسكينة حائمة متألماً حول هذه الائمة الى الابد . فيقول عنها الفلاح حين مروره بها انها نفس كاهن يطلب الدخول الى الكنيسة لتلاوة قداسه » قال محرر الديبا بعد ابراده هذه الشذرة « ولكن يا للاسف انه لا يجد ابداً اولاداً يخدمون هذا القداس »

والآن اليك ما قاله في معلميه واساتذته وكلهم من رجال الاكليروس لانه كان راهباً في شبابه « كان اساتذتي يعلموني ما هو افضل من الانتقاد والاستنباط الفلسفي . ذلك انهم كانوا يعلموني حب الحقيقة واحترام العقل والمعيشة الجدية . وهذا هو الشيء الوحيد الذي لم يتغير في » . ولقد صرت بتربتهم لا اقدر على شيء من الحياة الزمنية فانصرفت الى الحياة الروحية . وصرت ارى كل عمل مأجور عملاً دينياً . فيا اساتذتي الاعزاء الذين مات اكثرهم الآن . اني اراكم احياناً في احلامي ولكنني اراكم كمتذكار حلو عندي لا كتبكيك وتوبخ . فاني لم اخنكم بقدر ما تظنون . نعم قلت ان تاريخكم غير كاف وفلسفتكم اضعف من الفلسفة التي تعلمنا ان لا نقبل « شيئاً خاصاً وراء الطبيعة » ومع ذلك فاني لا ازال تلميذاً لكم . فاني مثلكم اعتقد ان الحياة لا قدر لها ولا قيمة الا بصرفها في الاخلاص والحقيقة والخير . الا انكم تفسرون هذا الخير تفسيراً ضيقاً وتجمعون هذه الحقيقة مادية مجسمة وان كنتم مصيدين من حيث اساس الموضوع . فانا اشكركم لانكم طبعتم في كطيعة ثانية ذلك المبدأ الذي قد يمنع نجاح الانسان الدنيوي الا انه ينيله السعادة

والراحة وهو ان الانسان عليه ان ينصب امامه غرضاً شريعياً يسعى اليه في الحياة سعياً مجرداً عن المصلحة الشخصية،

هذه هي مبادئ رنان وافكاره الدينية ولا ريب ان كثيرين من القراء يدهشون من بعضها لما يقرأونه عادة من طعن التخاذلين عليه لاغراض مختلفة . ولكن الغرض مرض لا دواء له

✽ التمثال والاحتفال ✽ ولما دخل ١٤ سبتمبر كان تمثال رنان منصوباً في ساحة تريجية نخف الوزراء والعلماء والكبراء في فرنسا للاحتفال برفع الستار عنه . وهذا التمثال يمثل رنان جالساً على مقعد في تريجية كما كان يجلس عادة وهو في سن الستين وفوقه " بالاس آتينا " الالهة الحكمة عند اليونان تحمل اكليلاً لتضعه على رأسه وقبعته الى جانبه وعصاه في يده وهو غائص في بحر التفكير والتأمل في الحياة والكون والانسان حسب عادته . وهذا التمثال من صنع النقاش جان بوشه . وقد قامت تريجية وقعدت في ذلك اليوم لكثرة المتوافدين عليها . وحدث بين حزب رنان والحكومة وبين الحزب الاكثريكي الملكي شيء من الاضطراب ولكن من حسن الحظ غلب الفريقان العقل على الجنون فانتهى الامر على احسن حال . وكانت الحفلة تحت رئاسة المسيو كومب رئيس الوزارة والمسيو شوميه وزير المعارف العمومية . ولما رفع الستار عن التمثال صفق الحاضرون وهتفوا فتلت حينئذ الدمع وازل مارينو " صلاة رنان على الاكروبول " التي ترجمناها بعد وهي ابلاغ ما كتبه الفيلسوف . ثم شرعوا في الخطب . وهي ست (الاولى) للمسيو كليس رئيس جمعية " البريطانيين الزرق " صاحبة التمثال . (والثانية) للمسيو كيلم شيخ تريجية (والثالثة) للمسيو شوميه وزير المعارف بالنيابة عن الحكومة والجمهورية (والرابعة) للمسيو برتولو الكجاوي المشهور صديق رنان الحميم بالنيابة عن جمعية العلوم (والخامسة) للمسيو اناطول فرانس الكاتب الكبير الذي خلف رنان في فرنسا برقة العبارة والجرأة (والسادسة) خطبة شكر تلاها المسيو بسشاري صهر رنان . وكانت قربنته مدام بسشاري ابنة رنان حاضرة الى جانبه

✽ صلاة رنان على الاكروبول ✽ فلما انه تلي في الاحتفال " صلاة رنان على الاكروبول " والاكروبول قلعة اتيانا القديمة وهي مزينة بالهياكل وتماثيل الالهة بينها تمثال الالهة " آتينا " ابنة جوبيتير الالهة العقل والحكمة . وهذه الالهة كانت حامية اتيانا عند

اليونان وباسمها سميت المدينة . فلما زار رنان أثينا في عام ١٨٦٥ وشاهد جمال هذا التمثال البالغ حد الكمال دهش واصبح يعتقد بان الكمال من هذا العالم حتى لقد سمي تلك المصنوعات «معجزات يونانية» حقيقية وصار يستصغر كل تمدن دون تمدنها . ولاعجابه بها كتب الصلاة التي تقدم ذكرها . وقد تطرف رنان في هذه الصلاة لانه كان يخاطب «الالهة العقل» بالعقل فقط اي انه وضع القلب جانباً كما قال فيها . وان هذا القلم قد سجد عشرين مرة لقلم رنان الساحرين ترجمتها لعله يغفر له نقصيره في نقل ابلغ كلام صاغته نفس بشرية . وهذه ترجمتها ملخصة طبقاً للاصل الا في موضعين او ثلاثة اختصرناها فراراً من التطويل من رنان الى الالهة العقل والحكمة.

وهي الالهة «أثينا» المصورة في صدر المجزء تكلم الفيلسوف

«يا مثال النقاء والجمال الساذج الحقيقي . يا ايها الالهة التي يتقرب اليها بالحكمة والعقل . يا من هيكلها عبارة عن مثال ابدي للاخلاص والمعرفة . لقد ابطأت في الوصول الى هيكل اسرارك . واني جئت اليك بضمير متألم . ولم اتوصل اليك الا بعد ابحاث لا نهاية لها . انك كنتِ بابتسامتك تمنحين الاثينوي حين ولادته قوة معرفتك والاشتراك معك اما انا فما حصّلتُ هذه القوة الا بالتفكير والجهد الشديد

لقد ولدتُ ايها الالهة ذات العينين الزرقاوين في بلاد السيميريين وهم قوم كرام فضلاء يسكنون على شاطئ بحر مزبد مغطى بالصخور . وكان اجدادي يشتغلون بالسفر في الابحار البعيدة التي لم يصل اليها قومك الارغونوتيون . ولما كنت صغيراً كنت اسمع منهم الاغاني التي كانوا ينشدونها في الاسفار القطبية . فشببت عليها وعلى افاصيص الثلوج المتحركة والابحر التي يغطيها الضباب كأنها من اللبن والجزر الماء هولة بطيور تنشد في اوقات معينة وتطير الى الفضاء معاً فتجيب وجه السماء

وقد رباني كهان دين غريب جاءنا من سوريي فلسطين . وكان هؤلاء الكهان عقلاء حكماء فعملوني قصصاً طويلة عن «خرونوس» الذي خلق الكون وعن ابنه الذي جاء العالم كما قالوا . اما هياكل هؤلاء الكهنة فهي اعلى من هيكلك ثلاث مرات وهيئتها كهينة حرش ولكنها ليست وطيدة لانها تنهدم كلما مرّ عليها ٥ او ٦ مائة سنة . فهي من صنع البرابرة (١) الذين يظنون انه يمكن صنع شيء ثابت بغير القواعد التي وضعتها يا الالهة العقل . ولكن تلك الهياكل كانت تعجيني . فاني لم اكن درست ذلك الالهي بعد . فضلاً عن

انني كنت اجد « الله » فيها . وكانوا يغنون فيها اغاني ما زلت اذكر بعضها . منها « السلام عليك يا نجمة البحر . . يا ملكة الذين يتألمون في هذه الدنيا دار الدموع » او « يا وردة رمزية . يا برج العاج . يا بيت الذهب . يا نجمة الصباح » - انظري ايها الالهة . انني حينما اتذكر هذه الاغاني يتفطر قلبي حنواً واكاد اجمدك . فضحاً عن هذا الضعف الضحك . انك لا تقدرين على فهم السحر الذي اودعه السحراء البرابرة في هذه الاليات الشعرية ولا ان تدركي مبالغ ما اعانيه حين سماعها لا تمكن من اتباع العقل المجرد وحده

ثم انك لا تعلمين كم صارت خدمتك صعبة في الارض . فان كل استقامة ذهبت منها . وقد ملك السكيثيون (١) العالم ولم تبق فيه جمهوريات مؤلفة من اناس احرار . بل كل ما فيه ملوك خرجوا من دم ثقيل . جلالات لواقع نظرك عليهم لضحك منهم . وكذلك مدعون ثقلاء يسمون « خفيي الرأس » كل من يخدمك . وقد تألف من كل الصغار والدنايا عصابة طوقت العالم بلفائف من رصاص تكاد تخنق النفوس . حتى الذين هم انفسهم يخدمونك كم هم يستحقون شفقتك . هل تذكرين ذلك المكذوب الذي جاء منذ ٥٠ عاماً وحطم هيكلك بالمطارق ليحمله الى « طوله » ؟ ان جميع الذين يخدمونك اليوم يصنعون صنعه . . . فالتقد كتبت بحسب القواعد التي تحبينها ايها الالهة تاريخ حياة الاله الشاب الذي خدمته في صباي فعاملوني معاملة افيديروس . وقد صاروا يكتبون لي ويسألوني ماذا اقصد بذلك . فكأنهم لا يرون فائدة الا في ما يثرلهم ثمراً مادياً . ولكن يا ايها السماء . اسألك لماذا يكتب الناس تواريخ الالهة . اليس ذلك لتحيب ما فيهم من الروح الالهي الى الناس واطهار ان هذا الروح لا يزال حياً في قلب الانسانية وسيفي فيه الى الابد

او تذكرين ايها الالهة ذلك اليهودي الصغير الديم الذي كان يتكلم يونانية السوريين والذي جاء الى هنا في عهد ديونيزودوروس فطاف في ساحات هياكلك دون ان يفهمك وقراء النقوش التي على آثارك قراءة معكوسة فظن انه وجد في دائرتك مذبحاً مقاماً « لاله مجهول » - الا فاعلمي الآن ان هذا اليهودي قد تغلب على العالم . ولقد انقضى الف سنة يا ايها الحقيقة وهم يسمونك وثناً . لقد انقضى الف سنة والعالم شبيه بقر قاحل لا تنبت فيه زهرة . ففي ذلك الزمن كنت ساكنة خرساء يا فقير الفكر البشري . وكان من يجبك حينئذ يحسب جانياً يا الاله النظام ومثال القرار السماوي . حتى اليوم وقد

افرغنا الجهد للاقتراب منك بعد متاعب شاقة صاروا يتهمونا باننا جنينا على العقل البشري بكسرنا قيوداً كان افلاطون نفسه في غنى عنها

انت وحدك فتية طاهرة نقية ايتها العذراء الجميلة . انت وحدك قوية يا الالهة النصر . انت وحدك تحفظين المدن وتحرسينها . فان لك من « المريح » كل ما يلزمك من القوة . ولكن لا غرض لك غير السلام . فيا واضعة الشرائع العادلة . يا ايتها الديموقراطية التي مبدؤها الاساسي ان كل خير هو آتٍ من الشعب وان كل مكان ليس فيه شعب يوحى الى النفوس عظام القرائح فليس فيه شيء - علمنا كيف نستخرج « الماس » من الجوع الجاهلة . ويا عناية جوتير . يا ام كل الصنائع . يا حامية العمل . يا ايتها الحكمة ابنة زفس المتحدة في جوهر ايها . يا ايتها النار التي تشعل نفوس الابطال واصحاب القرائح العظمى . اجعلينا روحين نفساً وجسداً . - يا ايتها الالهة . لما تخاصم فيك الاثنيويون والروديسيون اخترت الاقامة بين الاثنيويين لانهم اكثر حكمة . فانزل ابوك على الروديسين الاله بلوتوس في سحابة ذهبية مكافأة لهم على اجلالهم ابنته . فصار الروديسيون اغنياء . اما الاثنيويون فانهم صاروا حكاماً واكتسبوا البشاشة والدكاء اي اكتسبوا السرور الابدي وطفولية في القلب دائماً

ان العالم ايتها الالهة لا يخلص الا اذا عاد اليك وبند صلاته البربرية . فلترقص اليك ولنا ت افواجاً افواجاً . يا له من يوم جميل يوم تاتي كل المدن التي اخذت انقاض هيكلك كالبندقية (فينسيا) وباريز ولندن وكوبنهاغ وترد تلك السرفة معتذرة بقولها « عفواً ايتها الالهة ما اخذناها الا لحمايتها من شياطين الليل » وهكذا يعيدون بناء جدرانك على نعم المزممار تكفيراً عن جناية ليزاندرس (١) ثم يقصدون سبارطة لعن تلك الارض التي صدرت عنها اغلاط مظلمة ويهينونها لانها لم تعد موجودة

اني او من بك ايتها الالهة ومتى كنت قوياً فيك فاني اقاوم كل نصع بغربي . اقاوم ارياي الذي يجعاني اشك في الشعب . اقاوم اضطراب فكري الذي كما وجد الحقيقة لا يكتفي بها وبدفعني الى البحث عنها ايضاً . اقاوم هوسي الذي يمنعني من الرضى بحكم العقل كل ما حكم العقل حكماً قاطعاً ويحرم نفسي الراحة . فيا مثال الكمال الذي يثبته اصحاب القرائح العظمى في مصنوعاتهم الكبرى انني افضل ان اكون الاخير في منزلك على ان اكون الاول في سواه . فاعلمي انني ساوقف نفسي على خدمتك واربط روحي في هيكلك . سانسى كل

نظام غير نظامك واجعل غرفتي بجانب غرفتك . بل اعظم من ذلك اني ساجعل نفسي (اذا قدرت) متعصباً متحيزاً أكراماً لك . فلا احب شيئاً غيرك . وهذذا اني ساتعلم لغتك وانسى كل لغة سواها . ساكون ظالماً لكل شيء لا يتعلق بك . ساجعل نفسي احقر خادماً لاحقر ابنائك . سامدح سكان ارضك واحب فيهم كل شيء حتى عيوبهم . ساقنع نفسي بانهم من سلالة اولئك الفرسان الذين يحتفلون فوق علي رخام نقوشك بعيدهم الابدى . ساسلخ من قلبي كل شيء لا يكون عقلاً وصناعة مجردة . ساعدل عن حب امراضي والارتياح الى الحمى التي تحرقني . فساعديني يا ايتها الالهة وانقذيني

ولكن كم من المصاعب تعترض طريق . فاني ساضطر الى تغيير عادات عقلية كثيرة ونبد تذكارات جميلة من نفسي . فساجرب ذلك وان كنت غير واثق من نفسي . ذلك لانني ابطأت في معرفتك يا ذات الجمال الكامل فاخشى ان يعاودني ضعفي . ان فلسفة فاسدة جعلتني اعتقد ان الخير والشر . واللذة والالم . والجميل والدميم . والعقل والجنون . كلها تجول وتندخل بعضها في بعض بطرق خفية لا تدرك كما ان الناظر لا يدرك مطاوي عنق الحمامة . وحينئذ تصير الحكمة في ان لا يحب الانسان شيئاً مطلقاً ولا يبغي شيئاً مطلقاً . فانه لو كانت احدى الهيئات الاجتماعية او احدى الديانات او احدى الفلسفات قد حازت الحقيقة المطلقة لكانت تغلبت على ما بقي وعاشت وحدها في عصرنا الحاضر . اذا فكل الذين ظنوا ان الحقيقة في جانبهم منذ البدء حتى اليوم قد اخطئوا في هذا الظن وهذا امر واضح كل الوضوح . فبل من الحكمة ان نعتقد نحن في نوبتنا ان الحق في جانبنا وان المستقبل لا يحكم علينا كما نحكم على الذين تقدمونا . - هذه هي المسبة التي تجول في فكري الفاسد . ان الاشياء اذا كانت صحيحة سايمة من كل جهة مثلك فانها تدعو الى الملل والسامة

انك تصحكن من سذاجتي . ولكن قلت واقول الملل والسامة . فان عقولنا فسدت وما الحيلة . بل اني اقول لك اكثر من ذلك ايتها الالهة المسنمية واطلعك على حقيقة فساد قلبي . عندي ان العقل وسلامة الحكم لا يكفيان . لان في نشوة « التراس » وجليد « الشريمون » شيئاً من الغزل لا يوجد في سواها . وسياً في زمن يكون فيه تلامذتك تلامذة السامة . ان العالم اكبر مما تظنين . ولو انك شاهدت ثلوج القطب واسرار السماء الجنوبية فان جهنمك لا تكون صافية هادئة الى هذا الحد . ورائسك حينئذ يتسع اكثر فيسع ضروباً من الجمال مختلفة

انت الحقيقة . انت كاملة نقية لا لظغة على بلاطك . ولكن هيكل هاجيا صوفيا في

بیزانس (١) بأجره وجدرانه يُحدث في النفس تأثراً هلياً مثلك . فانه رمز الى قبة السماء . ومع ذلك فانه سينهدم . ولو كان بيتك واسعاً حتى يسع الجموع مثله لانهدم ايضاً . ان نهراً واسعاً يحملنا كلنا الى هاوية النسيان الهائلة . فيا ابتها الهاوية . ان دموع كل الشعوب دموع حقيقة . واحلام كل الحكماء فيها شيء من الحقيقة . وكل شيء في هذه الارض ليس الا رمزاً وحلاً . فان الالهة تمر وتذهب كالناس . وليس يحسن ان تبقى ابدية . والايمان الذي كان للانسان لا يجب ان يكون له قيلاً . فانه متى لفه باعناؤه في الكفن الارجواني الذي ترقد فيه الالهة الميتة يكون قد وفاه حقاه »

هذه هي صلاة الاكروبول التي هي اشهر ما كتبه رنان . ومما يحسن ذكره هنا ان جمعية العلوم في باريز ارسلت الى اثينا في العام الماضي احد اكابر المصورين الباريزيين فصور في الاكروبول رنان بحججه الطبيعي وافتقاً امام الالهة (اثينا) وباقي الآثار يتلو لديها صلاته المذكورة

﴿ جواب الالهة على صلاة رنان ﴾ وقد ذكرنا ان المسبوق اناتول فرانس الذي خلف رنان بفرنسا في رقة العبارات وعذوبة الالفاظ قد خطب في جملة الخطباء . ففي ختام خطبته التي كانت في غاية الجمال جعل الالهة اثينا تجاوب على صلاة رنان بالجواب التالي « ايها السادة

» لقد اصاب النقاش الذي وضع « آثينا » بجانب رنان . فان هوميروس يخبرنا انها كانت تنزل من السموات الواسعة لتزور الرجال الذين كانت راضية عنهم . وقد زارت عولس غير مرة . وكأني الان اسمعها تحاطب صديقها الارضي وتقول اني الحكمة . ويصعب على الناس حتى افضلهم ان يعرفوني لاول وهلة بسبب الحجب والسحب التي تسترني لانني كالسماء غائمة صافية . اما انت يا ايها السليبي الطريف فانك طلبتني دائماً وكما وجدتني بذلت جهدي في معرفتي . فكل ما كتبته في ايها الشاعر حقيقي . ان قريحة اليونان انزلتني الى الارض . ولما قضت خرجت منها . فجاء بعدهم البرابرة واجتاحوا العالم . وكانوا يخافون الجمال ويحسبون شرّاً . فلما راءوني جميلة شكوا فيّ ولم يحسبوا اني الحكمة . فطرودوني . ولكن بعد ليل دام عشرة قرون بزغ فجر النهضة . فنزلت الى الارض

وزرت نصراء الانسانية والفلاسفة في غرفهم الضيقة حيث كانوا يصونون بضعة كتب جميلة في باطن الصناديق . وكذلك زرت المصورين والنقاشين في معاملهم التي كانت حينئذ حوانيت صغيرة . ولما حدث الاضطهاد فضل بعض انصاري الموت حرقاً بالنار على جمودي . والبعض الآخر تخلصوا من مضطهديهم بالتهكم والمزاح . ولكنهم لم يلبثوا ان نموا وتكاثروا شيئاً فشيئاً . وكان الفرنسيون اول من اقام لي الهياكل . وان قرناً بجملته من تاريخهم قد اهدي اليّ

ومنذ ذلك الحين صار الفكر حراً واُقبل الفلاسفة والعلماء وارباب النون على اكرامي . ولكنك انت من بينهم كلهم قدمت لي على ما اظن العبادة التي هي اشقى ما يكون وارق ما يكون . ومنك انت رفعت اليّ الصلاة التي هي اتقى صلاة واحرّها . فانك على اكرابولي المقدس حيتيتني اجل تحية بكلام لم يصغ مثله في الارض منذ ذلك الزمن الذي كانت فيه نحل الحكمة تلي عسلها على شفاه سوفوكلوس وافلاطون

ان الالهة الخالدة مديونة بشيء كثير للذين يعبدونها . وهي مديونة لهم قبل كل شيء بالحياة . وهذا سر قد عرفته انت . فان الالهة انما تستمد غذاءها من الناس . وهي تقتذي من البخار المتصاعد عن دماء الفريسة . ولا ريب انك تعلم ان المقصود بذلك ان حياتها مؤلفة من جميع افكار البشر وعواطفهم . فالتناس الكرام الصالحون تكون آلهتهم كريمة صالحة . اما الالهة الشرسة القاسية فلا تكون الا للذين تكون عواطفهم ونقد ماتهم كذلك .

وحقاً قلت : ان الالهة كالبشر غير خالدين . ومنها ما لا يعيش اكثر من التي سنة . واما انا الالهة « آتينا » ذات العينين الصافيتين فاني مديونة لك بانني ما زلت حية . ولكني ما كنت لاكتفي فقط بالحياة وطول العمر . فاني اشفق على الالهة التي سبى خلال البخار وبقايا البخور تجرّ ذيل الهبوط . بل انك زدت سيفي جمالي وعظمتي . لقد غذيتني من قوتك ومن مبداءك . وبك وبمن يشبهك اتسعت دائرة عقلي حتى صار يسع عالم كبلر ونيوتن

لقد ولدت ذكية في بلاد اليونان السعداء . وفي صباي اكتشفت من النواميس والشرائع ما لم يعلم به الاله الذي طردني . ولكن العالم كان يومئذ صغيراً . فاني ما كنت اعلم من الهندسة الا ما كان يعلمه اقليدس ولا من الطب الا ما كان يعلمه ابقراط ولا من علم الفلك الا ما كان يعلمه اريستارخس من جزيرة صاموس . ولم تكن عيناى ثقفان الا على بحر الاتيك وجباله البنفسجية التي ينمو الزيتون فيها . ولم اكن اعرف من البرابرة غير

السكيثيين . وكنت اظن ان السفن الفينيقية الراسية في مياه البيرة هي تجارة الدنيا كلها . وقد كنت متشرفة فاني من شاطئ صخري المقدسة هذه كنت احكم على بضعة الوف من الاحرار البلاء . وكانوا يصوروني على كتب القضاء بحال جامع بين السذاجة والرقه وهو لا يزال يفتن ناظره حتى اليوم . نعم يا رنان . انني استحق الاسماء التي سميتني بها . كالاهة السلام . وحامية العمل . والديموقراطية . والنصر . ولكن قل لي اية نسبة بين مدننا القديمة والامم العظمى التي في هذا العصر . فالحكام اليوم قد كشفوا عن ناظري واروني ما لا نهاية له من العوالم . فرائت على ارض ترتجف من نفخ البخار وصدوم الكهرباء امما عديدة عددها مليار وستمائة مليون شخص كانت امس بعضها اعداء لبعض وهي اليوم بعضها اقرب من بعض مما كانت وكلها مندفعة للعمل في الصناعة والعلم يشغل بعضها بعض او بعضها ضد بعض متحاسدة متباغضة متزاحمة

ولكن ترى كيف تكون نهاية هذا الزحام والنزاع بين كل تلك القوى المتعددة والاهواء المختلفة ؟ من يكون الغالب في الخاتمة ؟ الحب ام البغض ؟ الجهل ام العلم ؟ الحرب ام السلم ؟ الهمجية ام المدنية ؟ قوات الذين سميتهم « ملوكاً خرجوا من دم ثقيل » ام قوة الديموقراطية ؟ - لا تساني عن ذلك يا رنان . فان المستقبل محبوب حتى عن الذين يصنعونه . لا تسأل كيف تكون حالة المستقبل ولكن كن على ثقة من انني سابنيه وحدي . ذلك لانه لا مهندس ولا بناء غيري . ولم يستدعني الفلاسفة والعلماء الى الارض عبثاً . فانه بينما يشغل الجبابرة اعداء الآلهة العادلة بصنع الاسلحة ووضع الجبال بعضها فوق بعض ابني انا مدينة المستقبل المقدسة وان كان الحكماء انفسهم لا يرون ذلك ويشككون في اني ابنيها . ولكن المستقبل سيعرف ابني هذه من قوتها ومتانتها لان مباني الجهل والضلال لا تلبث ان تنهدم من نفسها . وانك ذكرت ذلك يا رنان وقلت ان لا شيء يدوم ويبقى الا اذا كان منظماً يديع بحسب قواعدي . ذلك لانني ام الاحتياط والنظام . ذلك لانني فكر كل ذي فكر وعلم كل ذي علم . بل فكرك وعلمك يا صديقي رنان

فكن مطمئناً واقبل الان من يدي غضن الذهب الذي استحقه جذك وكذك . عش مجتهداً معظماً في اني القلوب واغوى النفوس . احب في لاجبي فيك يا اعظم اصدقائي . فلقد نلت الخلود الذي كنت تصبو اليه . وكل ما ابرزته نفسك من الجمال والخير لا يذهب شيء منه سدى بل يبقى الى الابد . فان الانسانية لا بد ان تحقق احلام الحكماء شيئاً فشيئاً وان كان سيرها بطيئاً » - انتهت خاتمة المسيو انا تول فرانس

الخاتمة

هذا ما رأينا ذكره عن الفيلسوف رنان في هذا الفصل . وليس غرضنا منه سوى الاشتراك في اكرام هذا الفيلسوف العظيم الذي خدم البشر في الارض بكل قوى عقله الفائق وفطرته الخارقة العادة وان كان قد تطرف في ذلك تطرفاً حسابه بينه وبين الله وحده وان قيل ما فائدتنا من هذه المقالة فالجواب لنا فيها فائدتان مهمتان . (الاولى) من حيث لغة رنان (والثانية) من حيث فلسفته

✽ الفائدة الاولى ✽ اما الفائدة الاولى وهي من حيث اللغة فهي لا تخلو من اهمية للكتاب الشرفيين . ذلك ان رنان من حيث اللغة هو ممثل الكمال والجمال فيها بين جميع كتاب العالم . فلفته ارق وابلغ لغة خطها بنان انسان والفرنسيون كلهم مجمعون على انه ابلغ كتابهم من يوم وجود اللغة الفرنسية الى اليوم . ولكن بلاغة رنان خاصة به . فان الطفل بقراءة كلامه وينهمه بسهولة دون ان يحتاج ان يفتش عن كلمة في قاموسه . وكان رنان حينما يبالغون في الاعجاب بلغته الحلوة السهلة البسيطة يتعجب من مبالغتهم ولا يفهم اعجابهم هذا . وسبب ذلك ان هذا الاسلوب كان طبيعياً فيه وبما انه لم يكن يتعب في صوغه فقد كان يستهينه ويظنه امراً سهلاً على غيره . فبلاغته اذا كانت مصوغة من مادتين : الاولى الفاظ سهلة بسيطة مألوفة الاستعمال يفهمها كل الناس حتى الاولاد والاطفال . والثانية رقة خصوصية في نفسه تبث الحياة في تلك الالفاظ وتجلبها بحلاوة تسكر النفوس ولو كان الموضوع من اصعب المواضيع الفلسفية والتاريخية والعلمية مبقية له كل ما يلزم من السهولة والبساطة لسرعة الفهم

وعلى ذلك فحقيقة البلاغة ليست في قواميس اللغة وكتب الادب ليذهب الطلاب ويفتشوا فيها عنها بل هي في الطبيعة نفسها اي طبيعة الكون الجميلة وطبيعة نفس الانسان اي في باطنه . فمن لا يملكها في نفسه فعبثاً يطالبها في الكتب . فانها حسناء ذات دلال لا تُسبى الا مرة واحدة وذلك حين نزول الانسان من جوف امه . فالبلاغة اذا عبارة عن حسن فطري باطني اي نفسي كما ان حسن الوجه حسن خارجي . وربما كان هنا شيئاً من الفرق والاختلاف بين البلاغة الافريقية والبلاغة العربية لاعتماد هذه على الالفاظ وتثقيفها اكثر من اعتماد تلك على ذلك . واذا كان هذا الرأي صحيحاً فهو عثرة في سبيل البلاغة العربية . ولكن من حسن الحظ ان هذه العثرة قد اخذت نزول بعد ان طما على اللغة العربية سبيل البلاغة اليونانية في عصر النهضة العباسية والاندلسية الاولى وبلاغة الافرنج في هذا العصر ولس

كانت هذه مصدرها تلك ايضا . ولذلك صار اصحاب الذوق يستملحون البلاغة الانجليزية كصلاة رنان على الاكروبول المنشورة آنفا وغيرها . وفي الحقيقة ان هذه الصلاة الفلسفية هي ادل الانوال على حقيقة البلاغة الانجليزية . وبألبت الذين يخنارون بعض الترجمات السقيمة لانكار باعاء الانرج ثم يحكمون بركاكة لغتهم بالنسبة الى اللغة العربية يحيلون النظر في معاني رنان في صلاته هذه وحينئذ يعرفون حقيقة البلاغة فتعاف نفوسهم بعدها كل لغة لا تكون قريبة منها كما يعاف آكل السكر الشعر المزمع بعده . ويعلم حينئذ الذين ينسبون الى اللغة العربية القصور عن مجارة لغات الانرج انهم ظلوا بذلك لان القصور هو في اسلوبها البدوي القديم الذي لا ينطبق على حاجات العصر لا فيها نفسها . لانها لم تخرج عن كونها لغة سامية رفيقة بعبئها عن كل العواطف الجميلة متى هجر ذلك الاسلوب وحل محله الاسلوب الذي سموه « انرجيا » وهو في الحقيقة طبيعي ازلي لانه سبق الانرج واليونان والرومان ووجد مع الانسان اول بلاغته

❖ **الفائدة الثانية** ❖ هذا ما نستفيد من حيث اللغة من قراءة هذا الفصل حين الوقوف على كلام رنان الساحر . اما ما نستفيد من حيث فلسفته فهو اهم من ذلك بكثير قال رنان في آخر حياته في احدى خطبه وهو من اشهر اقواله . « وددت لو يكون قبري في وسط دير . ولكن الدير فرع عن الكنيسة والكنيسة لا تريدني وان كانت مخطئة في ذلك . واود ان يحفروا على قبري هذه العبارة « لقد احب الحقيقة » اجل انني احببت الحقيقة وطلبتها وسعيت ورائها الى حيث كانت تدعوني دون ان التفت الى ما اعانيه في سبيلها . وما لا يحتاج الى بيان ان سر الكون لم ينجل لاحد بعد . وليس هنالك احد علي ثقة من انه وجده . فان اللانهاية التي تحيط بنا وتضبط علينا لا يحيط بها علم وهي تتلصص من كل حدب وقيد . ولكن هنالك شيء واحد يستطيع الانسان ان يكده ويكون على ثقة منه وهو حسن نية القلب . ولقد عملت ما عملت بحسن نية . وانا اقسم على صدق هذا القول بموافقي الاخير في يوم الدينونة » وقال في موضع آخر « متى وجدت في اثناء بحثي تعلما او مبادئ تعترضني وتسد الطريق في وجهي فاني احكم عليها بالضعف واعرض عنها لانني اريد اللانهاية ولا اقبل شيئا غيرها »

فيظهر من هذا ان غرض رنان انما كان طلب الحقيقة المجردة بقواه العقلية دون اعتماد على شهادات الكتب والناس . فاذا اخطأ فقد اخطأ عن حسن نية واذا اصاب فقد اصاب بحسن نية . وكل انسان يطلب ما يشاء بحسن نية اي يطلبه لذاته مجردا عن المصلحة

الخصوصية فهو معذور ولا شك لانه يتبع ضميره ووجدانه . وبذلك لا تكون صناعة القلم عبارة عن صناعة تجارية يُقصد بها جمع الفكاهات والفوائد التي تُرضي الناس وتدرُّ المال بل تكون — فوق الاهواء وفوق الناس — محكمةً عليا للبداءى والضمير لا لا غرض لها الا تقرير الحقائق لذاتها بين الجميع وطلبها حيثما كانت . وحينئذ تكون هذه الصناعة صناعة الهية وميزان الله في الارض بين الصغار والدنيا البشرية

فيا موحية هذه الصناعة الالهية يا « آئينا » العظيمة اسمحي لنا بعد صديقك العظيم ان نوجه اليك رجاءنا وسؤالنا نحن معاشر الشرقيين . وليس لك ان تكبري علينا ككثيرا فان بيننا رجما قديمة . انذكرين يا ابنتا الالهة اولئك الفينيقيين الاسرى الذين كان يختطفهم بحارة جزائر في الارخبيل من شواطئ صور وصيدا ويسوقونهم الى بلادك . ان هؤلاء الاسرى كانوا من مساعديك على تمدن قومك وتعليمهم الفنون الجميلة لاول مرة وهم من قواعد نهضتك . ففي عروقتك اذا يا ابنتا العذراء الجميلة شيء من دماء شرقية . فنناشدك بحق حرمة هذا النسب القديم ان تبعي الى الشرق جدك القديم شيئا من سناء نورك العظيم . علينا ان ننسى اهواءنا ومصالحنا الخصوصية لما نضع انفسنا في موضع خدمة المصلحة العمومية . علينا ان نجهر بمعتقدنا ايا كان ولا نخاف فيه قوات الارض والسماء لئلا نكون خونة لك ضعفاء جبنا . افهمينا معنى الحق والعدل والواجب والعقل لتتخذنا نجوما تهدينا في ظلمات هذه الحياة وجامعة جديدة تقوم لدينا مقام كل جامعة بدل انقضاءنا ونفائنا في تأييد المصالح والجهالة والاهواء . ثبتنا دائما في احتقار ملاذ الارض وموادها لئلا تشغلنا عنك فان تلك الملاذ الباطلة تقتلك وتقتلنا اذا قويت عليك وعلينا وحينئذ تصبح الارض مستنقعا نبتا يسود فيه الاكثر شراهة والاشد قابلية . افتحي عيوننا لئلا نرى اننا في طلبنا الاصلاح في الشرق يجب ان نكون مخلصين قلبا وقالباً مهتمين بالجميع لا بصفة واحدة وان نبداً باقرب الاشياء اليها اي بانفسنا . واكثالا لهذا الاصلاح بشي فينا يا ابنتا الالهة القادرة ذلك الروح الذي لا خلاص لنا بدونه وهو روح التساهل المطابق الذي كان صديقك رنان رسوله الكبير . ونعني بهذا التساهل اعطاء جميع الآراء والافكار حق الظهور في الشرق بين الناس لتكمل بذلك الحركة الشرقية قهيدا للنتيجة العظيمة التي تخرج منها بعد استيفاء فعلها واختيارها . ونحن نرضي هذه النتيجة معها كانت لاننا على ثقة من انها لا تكون منافضة لروح العدالة والنزاهة الابدية الالهية . واذا كنا لا نشاهدها في زماننا فحسبنا ان يشاهدها احفاد احفادنا ولو بعد عشرين عقبا